أحاديث برقاش هيكل

الخرائط تتكلم والصور تحكي

هيكل مع بورقيبة

عبدالله السناوي

لم يكن الرئيس الفرنسي شارل ديغول بخلفيته العسكرية مستعداً لأن يستمع لمداخلات دبلوماسية معتادة ومطولة تمهد للحوار وأهدافه.

وكان ضيفه القادم من القاهرة، مقدراً دوره التاريخي في الحرب العالمية الثانية كأحد أبطالها الكبار، قد هيأ نفسه في طريقه لـ«قصر الإليزيه» لسيناريو يسجل فيه ـ أولاً ـ ما رأى أن الرجل يستحقه بأدواره الاستثنائية في تحرير بلاده من الاحتلال الألماني من تحية ينقلها إليه باسم الرئيس المصري جمال عبد الناصر... ثم ينتقل ـ ثانياً ـ إلى العلاقات التاريخية والتقليدية بين فرنسا ومصر، ويؤكد على استمرارها... قبل أن يصل ـ ثالثاً ـ إلى رسالته وموضوعها.

«عال يا مسيو هيكل.. قل لي ماذا تريد بالضبط؟».

«سقطت كل التمهيدات التي هيأت نفسي لها ذات صباح من سبتمبر عام 1967».

«التفت إلى أن الرجل التاريخي يجلس خلف مكتبه على فوتيل، كبير لكنه ثابت، لا يتحرك يميناً أو يساراً على ما اعتاد زعماء آخرون، وأن المباشرة من مقومات شخصيته وطبائع تجربته».

«دخلت إلى موضوعي وفيه رهان لجمال عبدالناصر على دور لديجول بعد نكسة يونيو يخفف من وطأة الانحيازات الغربية لإسرائيل».

أكثر ما استلفت انتباهه في ذلك اللقاء عناية ديغول بالخرائط، «وهذه من طبائع العمل العسكري فالمعارك تجرى على مواقع وخطوط الاشتباك تتداخل وتمتد والتخطيط يتصل بالخريطة وتضاريسها والحقائق الإنسانية فوقها».

طلب ديغول خريطة وضعها أمام ضيفه: «انظر أمامك يا مسيو هيكل.. هذه مساحة العالم العربي.. وهذه مساحة إسرائيل، الهزيمة التي لحقت بكم مؤقتة بطبيعة الجغرافيا والحقائق السكانية فوقها، الوضع لا ينبغي أن يخيف، ومن ينظر عندكم إلى الخريطة لا بد أن يستشعر ثقة في مسار المستقبل».

بلغة الخرائط أجاب ديغول على رسالة عبدالناصر: «اطمئن».. وكان ذلك أكثر مما توقعت القاهرة من باريس في أحوال ما بعد 5 يونيو.

في ذلك الصباح ترسخ لديه «أن الصحافي بدوره لا يقدر على قراءة المشاهد المتحركة بتفاعلاتها وتعقيداتها ما لم تكن الخريطة ماثلة أمامه».

في حواراته المطولة مع صديق ديغول ووزير ثقافته أندريه مالرو، صاحب رواية «الأمل»، تبدت نقطة تنوير جديدة لدوره هو في تجربة أخرى على الجانب الآخر من المتوسط. كلاهما ارتبط برجل تاريخي، أحدهما اقترب برؤية المثقف والآخر بموهبة الصحافي.

ذات صباح آخر على مائدة إفطار في بيته دار حوار مثير في موضوعه وتفاصيله مع الدكتور إدوارد سعيد صاحب «الاستشراق» حول المثقف والسلطة.

كان رأي سعيد، وقد نشرته ضمن حوار معه منتصف تسعينيات القرن الماضي: «المثقف يكف أن يكون مثقفاً عندما يقترب من السلطة».

سألته: «حتى أندريه مالرو؟!».

أجاب سعيد بتحدي المثقف الكبير، الذي يعتقد في سلامة أطروحته: «نعم».

وكان رأي هيكل: «أن التعريف على استقامته فيه تعسف، فماذا يفعل مالرو وصديقه الجنرال الذي أعلن المقاومة بعد هزيمة بلاده واحتلال عاصمتها أصبح رئيساً لفرنسا؟.. هل تقترح أن يقطع علاقته به وأن يعترض على تولي وزارة الثقافة الفرنسية حتى يكون بالتعريف مثقفاً؟».

في نهاية مساجلة بين صديقين، أبدى سعيد تفهمه أن هناك حالات في التاريخ تستعصي على التعريف الذي اعتمده تدخل فيها علاقة محمد حسنين هيكل بجمال عبدالناصر.

في التجربة الفرنسية تجلت أمامه حقيقة جديدة هي أن قراءة الخرائط وتفاعلات الحوادث فوقها تتخطى خطوط الجغرافيا الصامتة إلى سؤال الثقافة بين سكانها.

وبدت إيماءة ديغول إلهاماً جديداً لعناية أكبر بالخرائط أخذت بالوقت تتسع حتى احتلت نسخاً نادرة لثلاث خرائط مصرية قديمة حائطاً خلف مكتبه وأزاحت لوحات تشكيلية لفنانين كبار عالميين ومصريين.

كانت الخرائط سيدة المكان بلا منازع.

(1)

في قصته مع الخرائط احتفظت ذاكرته بحواراته مع المفكر المصري الدكتور جمال حمدان، وهي مثيرة في وقائعها ومجهولة في أسرارها.

كلاهما كان شاغله الرئيسي «الجغرافيا والتاريخ».

أحدهما، قضيته الجغرافيا وعبقرية المكان فيها يقرأ ثوابتها من نافذة التاريخ وتحولاته.

والآخر، قضيته التاريخ ووثائقه في رواية الصراع على مصر والمنطقة يطل على وقائعه من فوق تضاريس الجغرافيا وثوابتها.

«قرأت له قبل أن أعرفه، درس في جامعة ريدنج البريطانية لكنه انتمى إلى المدرسة الألمانية الأكثر جدية في دراسة الجغرافيا، وهي مدرسة تنتمي إلى إمبراطورية متشوقة لمستعمرات لم تحصل عليها باستثناءات سبقت الحرب العالمية الأولى.. الاستكشاف عندها سبق معرفي دون أن يكون مرتبطاً بمصالح محققة».

«استمعت إلى قصص تروى عن عزلته في محراب فكر، لا يتصل بالعالم حوله، يخرج من منزله قليلاً ولا يفتح بابه لأحد إلا بإجراءات واتفاقات مسبقة، وتقصر الزيارات على من يطمئن إليه وعددهم يحصى على أصابع يد».

طرأت فكرة اللقاء الأول مع جمال حمدان في حوار بمكتبه مع الكاتب الصحافي مصطفى نبيل، وهو من أبرز المثقفين المصريين والعرب في ربع القرن الأخير، تولى لسنوات طويلة رئاسة تحرير مجلة «الهلال».

في ذلك الصباح تطرق الحوار بينهما إلى صاحب عبقرية مصر، شخصيته وعزلته، إسهاماته وكتاباته، وهل يمكن أن يقنعه أحد بالخروج من العزلة التي طالت إلى رحابة الحياة.

أسهب مصطفى في الحديث عن «راهب الجغرافيا»، وكل حرف يقوله مصدق، فلا أحد غيره تفتح له الصومعة المغلقة على صاحبها باستثناء أسرته تأتي إليه لتوفر احتياجاته.

«قال مصطفى: جمال يريد أن يراك.. ولم أكن في حاجة إلى تفكير فأنا كنت أتطلع بدوري إلى رؤيته».

في الموعد المحدد وصلا معاً إلى شقة جمال حمدان في حي الدقي.

مرة بعد أخرى طرق مصطفى باب الشقة على الطريقة المتفق عليها حتى يعرف من بالخارج، لكن لا أحد يستجيب.

بدأ بدوره يطرق الباب على نفس الطريقة، ولا أحد يفتح باباً، أو يصدر صوتاً أن خلفه حياة.

اقترح مصطفى أن يعودا إليه في يوم آخر بعد التأكيد على صاحب البيت حتى يفتح بابه، لكن هيكل أبَى، فقد كان مهيئاً تماماً للقاء تطلع إليه مع رجل بدا أمامه عبقرياً وغامضاً.

«عبقريته في كتاباته وغموضه في حياته».

الصحافي فيه تحرك على نحو لم يكن ممكناً معه أي انتظار لموعد جديد.

خرج إلى الشارع وبصحبته مصطفى.

التقط حجراً صغيراً وقذفه على شرفة الشقة، التي تقع بالطابق الأرضي، لعل ضجيجاً يوقظه من نوم، أو يذكره بأن هناك موعداً ـ على ما روى لي بعد سنوات طويلة رفيقه في الزيارة المثيرة لمفكر الجغرافيا والخرائط.

سألت الأستاذ: «هل قذفت حجراً على شرفة شقة جمال حمدان؟!».

ضحك قائلاً: «دع القصة يرويها لك صديقك مصطفى نبيل».

كيف كان اللقاء الأول؟

«من خلف باب موارب رأيته مرتدياً روب أحمر فوق ملابس البيت».

«كان الرجل يعد الطعام لنفسه في مطبخه وغرفة الاستقبال لم تخضع لعناية منذ فترة».

«لم يكن المشهد يليق بمفكر من حجمه أثرت كتاباته في مجرى التفكير العام، ولفتت إلى دور الجغرافيا في حياة المصريين».

«سألته: ليه كل ده؟».

«بدا رجلاً تعرض لصدمة إنسانية فاقت طاقته على احتمالها لدرجة أنه أخذ يعاقب نفسه».

«سألته: لماذا هذه العزلة وإسهاماتك مراجع كبرى للباحثين والمثقفين والمعنيين بالشأن العام.. لماذا تفعل ذلك بنفسك وأنت الآن مؤثر لحدود لا تتصورها في التفكير العام».

«أنت تعيد فكرة الرهبنة المصرية بالعزلة في الخلاء لكنك منعزل في فوضى».

«طالبته بأن ننتقل إلى مكان آخر يصلح للحوار فيه، أن يرى الحياة الطبيعية فربما تغريه بالعودة إليها».

بعد قليل ذهب الرجال الثلاثة إلى فندق شهير بحي الدقي يطل على النيل.

في الحوار لطف إنساني بدأه حمدان: «إنك تتصرف كلورد إنجليزي رغم صداقتك لجمال عبدالناصر؟».. مشيراً إلى سيجار في يده يشعله بثقاب.

ابتسم لملاحظته سائلاً عما إذا كان يريد أن يدخن سيجاراً آخر يحتفظ به.

أخذ حمدان ينفث دخانه في الهواء ناظراً إلى جريان نهر النيل والحوار يتدفق بعمق.

تدفقت تساؤلات هيكل على صاحب «عبقرية المكان»: «ما الذي جرى للمكان وعبقريته وكيف وصلنا إلى هنا؟».

«إلى أين حركة التاريخ ذاهبة في هذا الموقع من العالم؟».

أجاب حمدان عن فيض تساؤلاته بكبرياء حزنه: «حركة التاريخ الدائمة قد تكون أحياناً إلى أسفل.. شهدنا انقلاباً لأنه كان بين السكان من لم يقدِّر ولم يرع حرمة وحق المكان».

شيء مما دار بينهما سجله في مقدمة كتابه «أكتوبر 73 ـ السلاح والسياسة»، الذي أهداه إلى «ذلك العالم المصري الفذ»، غير أنه لم يدخل في جو الحوار، ولا تطرق إلى بعض الأسئلة التي طرحها عليه الدكتور جمال حمدان في حضور مصطفى نبيل، التي سجلها كتابة كما طلبت وألححت.

[كيف تسكت يا أستاذ هيكل على ما يجري في مصر؟

أجاب الأستاذ: وماذا تريد أن أفعل؟

قال حمدان: لا تقل لي ما تردده أنك مجرد كاتب صحافي، فهذا غير صحيح، أنت زعيم سياسي يسلم بزعامته الكثيرون، فكيف لا تقود الشعب في ثورة لإسقاط المعاهدة المصرية الإسرائيلية، خاصة أنك تتمتع بالثقة وبميزات لا يتمتع بها سواك، ولديك تجارب ومعرفة عميقة بالمسرح الدولي والأوضاع المحلية، عادة لا يتقن الحديث من يحترف الكتابة، ولكنك تتقن بالوقت نفسه الكتابة الراقية والحديث المقنع، وعادة لا يعرف التفاصيل من هو غارق في الكليات، لكنك تجمع بين المعرفة الدقيقة بالتفاصيل والكليات معاً، وعادة لا يعرف الفيلسوف